



التاريخ، الذاكرة والسياسية: سطو فرنسا على التاريخ، حالة الجزائر (1830-2009)

أ.د. محمد القورصو
جامعة الجزائر 2

ملخص:

يدعونا قانون 2005 الممجد للاستعمار إلى التأمل مليا في قضايا التاريخ والذاكرة وعلاقتها بالسياسة من المنظور الفرنسي. إن إعادة التدقيق في مكانة ودور التاريخ في بلورة الأيديولوجية الاستعمارية وإسقاطاتها على حركية الحياة السياسية للأحزاب في فرنسا، جعلتنا نقف عند النتيجة التالية: وهي أن السياسة في فرنسا تتغذى من ذاكرتها الاستعمارية، ليس هذا فقط ذلك أن المسألة الجوهرية التي تطرح، هي مسألة حق الشعوب المستعمرة سابقا في تاريخها الوطني. فبعد ما تعرّض هذا الحق الشرعي أثله الاحتلال للتحريف والتشويه من طرف المدرسة الكولونيالية للتاريخ، ها هو اليوم عرضة للمزايدات والمساومات بين المتصارعين على السلطة في فرنسا دون أن يأبه أي طرف بمن حملوا هذا التاريخ على أكتافهم ونعني بهم الشعوب المستعمرة سابقا والتي يعرف تاريخها سطوا بآتم معنى الكلمة.

الكلمات الدالة: الجزائر، فرنسا، الاستعمار، التاريخ، الذاكرة، السياسة.

مقدمة

نحاول الوقوف في هذه الورقة عند مفهوم التاريخ في تصور فرنسا التي تكون قد دخلت فيما يمكن أن نسميه باستكمال بناء تاريخها الوطني بعد أن أدرجت بشكل قسري، تاريخ مستعمراتها السابقة في تراثها التاريخي والحضاري في عملية سطو غير مسبوقة.

لم تكن هذه المسألة وليدة السياسة المتبعة منذ تولي الرئيس الفرنسي الحالي (نيكولاي ساركوزي) مقاليد السلطة في بلاده كما أنها لم تتم بمعزل عن الصراعات والتجاذبات السياسية التي عرفت الساحة الفرنسية منذ 1958¹ والتي تحتل فيها الجزائر ولحد الساعة، مكانة محورية منذ خطاب العرش بتاريخ مارس 1830² وخروج حملة (المارشال ديپورمون) من ميناء طولون باتجاه الجزائر بتاريخ 25 ماي 1830³.

1- مقوط حكومة فيليكس فايار (dralliaG xiléf) - 13-12-1957-14-5-1958 - ودعوة الرئيس بار يفماليين (Pierre Pflimlin) في 31 ماي الجنرال ديغول إلى تولي رئاسة الحكومة (1-6-1958-8-1-1959) وسط أزمة سياسية حادة بسبب الحرب في الجزائر. أنظر:

-ALLEG Henri (sous la direction) (1981). La Guerre d'Algérie. t.2 pp.584-591. Idem., t.3, pp.13-53.

-DROZ Bernard et LEVE Evelynne (sous la direction) (1982). Histoire de la guerre d'Algérie. pp.162-180.

2- ESQUER-Gabriel : Les commencements d'un Empire. La prise d'Alger (1830).p. 189.

3- نفس المصدر ص. 285. أطلقت جيوش الاحتلال على الساحل الغربي من الجزائر العاصمة في 03 ماي وشرعت في عملية الانزال البري على ساحل سيدي فرج بصيحة 41 جوان 1830.

1. السطو على التاريخ

اصطلاحاً، السطو هو الحيازة غير الشرعية على ما للغير باستخدام القوة مهما كان نوعها. فما معنى السطو على التاريخ الذي هو تراث غير مادي وهل بالإمكان أن يكون التاريخ محل سطو؟ يكون الرد على هذين السؤالين من خلال سؤال آخر. من سمح ولماذا خرب متحف بغداد الزاخر بالتحف الفنية والقطع الأثرية النادرة غداة الغزو الإمبريالي الأمريكي للعراق سنة 2003؟ أليس المقصود من هذا النهب لمتحف بغداد، هو في حد ذاته يشمل البعد الثقافي-التاريخي للعراق والعمق الحضاري لبلاد حمو رابي. ألم يصرح آنذاك قائد الأرمادة الأمريكية على العراق، أن بلاده ستعيد العراق إلى غابر العصور التاريخية وأنها ستسحقه وتحوله إلى غبار. من المفارقات أن هذه المقولة التي تحققت في الميدان، تذكرنا بمثيلتها يوم تكتلت الدول الأوروبية ضد الجزائر في مؤتمر آكس لاشبال سنة 1818، الذي شهد وضع اللمسات العملية والأخيرة لمشروع قديم، الغاية منه القضاء «على وكر قراصنة الجزائر» الذين أسسوا لقوة بحرية في حوض البحر الأبيض المتوسط طيلة ثلاثة قرون ونيف (1830-1518) إلى أن وقعت الجزائر المحروسة فريسة الغزو الفرنسي في 19 جوان 1830.

إن المقصود بالسطو على التاريخ هو تجريد سكان البلد المستهدف من ذاكرتهم عن طريق تحريف وتزييف وتشويه وتبديد ماضيهم حتى تفقد الأجيال الناشئة مرجعياتها الأصلية بل أكثر من ذلك عمقها التاريخي الذي هو مصدر اعتزاز كل الشعوب لاسيما منها تلك التي قاومت الاستعمار. لم يتوقف الأمر عند هذا الحد، إذ الهدف من عملية السطو هو الاستحواذ على الممتلكات المادية⁴ وغير المادية للشعوب المستقلة وإدراجها ضمن المنجزات الحضارية للدولة المحتلة. أما كلمة التاريخ فتكتسي في هذا المقام مفهوما عاما بمعنى كل ما من شأنه أن يحفظ الذاكرة كالمتاحف والمكتبات ومراكز الدراسات المتخصصة والمواقع الأثرية على اختلاف أصنافها، من ما قبل العصور الحجرية إلى مخلفات الاستعمار ودور الأرشيف إلخ.

أما إذا حاولنا تشخيص «السطو التاريخي» من الناحية السياسية، فهو إقدام فرنسا على سلخ الشعوب التي احتلتها من ذاكرتها وتاريخها؛ واعتبار أن لا تاريخ إلا تاريخ الدولة المحتلة، ولا وجود لمؤسسات إلا لمؤسساتها، ولا وجود لشعب غير الأوروبيين. فالسؤال الذي يطرح نفسه بالحاح بعد قرابة نصف قرن من الزمن، هل دخلت «المستعمرات الفرنسية السابقة» مرحلة جديدة من تاريخها يكون فيها الدور البحث الفرنسي، الرسمية منها وشبه الرسمية، الدور الريادي في الإعداد لثقافة تاريخية جديدة تتخذ من العولمة والقيم الإنسانية بالمفهوم الغربي مطية لمواصلة «الرسالة الحضارية» التي قطعت الحروب التحريرية حبلها؟

هناك مسألة أخيرة. في حالة السطو على البنوك مثلا، يكون الجاني عصابة من الأشرار غالبا ما يمثلون بعد إلقاء القبض عليهم أمام الهيئات القضائية التابعة لبلدانهم أو في حالات

4- قامت إدارة الاحتلال بسرقة قطع كاملة من الآثار الرومانية والإسلامية من الجزائر، وضعتها بعد ذلك في متحف (اللوفر) بباريس كما سرقت عديد المخطوطات باللغة العربية التي نجت من النهب (أنظر فهرس المخطوطات العربية بالمكتبة الوطنية، بباريس)، أما عشية استرجاع الجزائر سيادتها الوطنية فأصدرت سلطات باريس أوامر وتعليمات لترحيل أرشيف الجزائر الموجد حاليا بمركز الأرشيف لما رواء البحر بـ (أكس أن بروفانس). أنظر :

Mehenni, Akbal (2004). Le Contentieux archivistique algéro-français. Thèse de Doctorat en Sciences documentaires soutenue au Département de Bibliothéconomie et des Sciences Documentaires, Université d'Alger, p. 365, non éditée.

خاصة ونادرة أمام هيئات جنائية دولية. ولكن عندما يتعلق الأمر بشخص معنوي تمثله الدولة بمختلف مؤسساتها، فتأخذ المسألة بعدا سياسيا ودبلوماسيا تحكمه قوانين البلاد المسطو عليها لما في ذلك من تعدّ صارخ على سيادتها الوطنية من جهة وإخلال بالعلاقات الدولية من جهة أخرى؛ مما يستوجب حشد كل ما تملكه الدولة المعتدى عليها من إمكانيات وما يتوفر لديها من آليات سياسية ودبلوماسية وقانونية واقتصادية وثقافية للتصدي للسطو.

2. التاريخ والسيادة الوطنية

إن التاريخ جزء من السيادة الوطنية. هذا المبدأ الذي لا يقبل النقاش لأنه حق طبيعي تشترك فيه كافة شعوب العالم، أضحى محل تطاول من طرف الدولة الفرنسية التي سنت ترسانة من القوانين تسمح لها بتدوين تاريخ الشعوب التي استعمرتها، مما يجعلنا نتساءل إن هي الحرب على التاريخ وبخاصة تاريخ الجزائر بجميع مراحلها، لاسيما مرحلتي الاحتلال الفرنسي (1830-1962) والثورة التحريرية الجزائرية (1954-1962)؟

لقد شهد العالم منذ قرابة عقد من الزمن عودة قوية للتاريخ كان من ورائها عدد من الدول الغربية (فرنسا وقبلها بريطانيا) والآسيوية (اليابان) غير أن هذه العودة لم تكن دعوة للاهتمام بالتاريخ كتراث وطني وإنساني في آن واحد من شأنه المساهمة في التقارب بين الشعوب والأمم وتضميد جراح الماضي القريب والبعيد خدمة للسلم العالمي ورفاهية شعوب المعمورة. جاءت هذه الدعوة منافية تماما لحق الشعوب في تاريخها وثقافتها الوطنية. فهل العالم أمام حرب استباقية من صنف جديد الهدف منها التصدي لعديد الأصوات التي تطالب بتجريم الظاهرة الاستعمارية مع تعويض الدول المحتلة التي أصيبت بأضرار مستدامة؟ أو بعبارة أوضح، هل من علاقة بين المطالبة بتجريم المحتل مهما كان، والسطو على تاريخ وذاكرة وثقافة الشعوب المستعمرة سابقا؟ وأخيرا، هل السطو طفرة من طفرات التاريخ، أم أنه سياسة وعقيدة؟

3. التاريخ في تصوّر فرنسا

لم يكن المقصود في هذه الورقة، التأريخ لمفهوم التاريخ في فرنسا منذ نشأتها إلى اليوم وإنما محاولة كشف الآليات التي مهدت لسياسة السطو التي اكتست مظهر الأيديولوجية الكولونيالية.

جاءت كلمة التاريخ، في القاموس الكولونيالي الفرنسي، مرادفة لعبارة «الإمبراطورية الفرنسية» وغداة سقوط هذه الأخيرة أصبحت مرادفة للثلاثية الكلاسيكية «فرنسا-الجمهورية-الأمة» وللثنائيتين «الجمهورية-الحضارة» و«تاريخ فرنسا». في مثل هذه الحالات، تحمل كلمة التاريخ عند النطق بها معاني الاعتزاز والأنفة والإثارة في نفس الوقت، خاصة إذا كانت محملة برسائل مشفرة كما حدث عدة مرات مع الجنرال ديغول الذي تتحول الكلمات على لسانه إلى رسائل تعبوية تهزم خصومه السياسيين والعسكريين⁵.

5- مجموعة من الجنرالات: (شال Challe)، (زيلر Zeller)، (جوهو Jouhaux)، و(سالون Salan) يتمردون ما بين 22 و25 أبريل 1961 على الرئيس الفرنسي الجنرال ديغول المتهم بتخليه عن الجزائر لصالح جبهة التحرير الوطني ويستولون على السلطة في الجزائر. عرفت هذه الحركة بـ«انقلاب الجنرالات». أحبطها الجنرال ديغول من باريس بإلقائه خطابا شديد اللهجة وصف فيه الانقلابيين بحفنة من الجنرالات (كارطرون) فكان لهذه العبارة وقع شديد على باقي ضباط وجنود الجيش الفرنسي في الجزائر الذين انقلبوا على الانقلابيين وبذلك قضى على التمرد.

إن أول من أعطى بالغ عنايته في فرنسا، منذ منتصف القرن العشرين بالتاريخ؛ كمرجع وذاكرة مؤسسية؛ هو الجنرال ديغول. مما يعني أن الموضوع سابق للتشنجات السياسية التي تكون قد تسببت فيها الجزائر⁶. حسب ما تعكسه الأدبيات السياسية والتاريخية الفرنسية، فكل الرؤساء الفرنسيين الذين تعاقبوا بعد ديغول على قصر (الإيلزي)، لم يحددوا عن نهجه مع الملاحظة أن مسألتي الذاكرة والتاريخ الكولونيين امتزجا امتزاجاً قوياً بالسياسة في عهدي (جاك شيراك) ونيكولا ساركوزي أي منذ 1995 إلى يومنا هذا.

وبعيداً عن كل مبالغة لغوية، شكل التاريخ وقود السياسة الفرنسية، الداخلية منها والخارجية. فعندما أراد الجنرال ديغول تحريك همم الفرنسيين 7 غداة احتلال باريس (14 جوان 1940) وأجزاء معتبرة من فرنسا ما بين 7 جوان 1940 و8 ماي 1945 من طرف جحافل الجيش النازي، استنفر بني جلدته وجيوش المستعمرات باسم «مجد فرنسا العظمى». فأمكن للرجل الجديد أن يفتح باسم ما يسمى اليوم في فرنسا بـ «التاريخ المشترك» جبهتين متكاملتين: جبهة المقاومة المسلحة وجبهة التعبئة النفسية المخدلة لحد الساعة لـ: «فرنسا التاريخية»، «فرنسا الحرة»، «فرنسا المقاومة» وكلها مرادفات لكلمة التاريخ بمفهومه البطولي والحضاري وظفها ديغول لينسي الفرنسيين هموم الاحتلال الألماني وتهميش بلدهم في المحافل الدولية⁸ عشية أفول نجم (هتلر) واستسلام ألمانيا النازية.

يرى ديغول أن التاريخ جزء أساسي في تكوين «فرنسا الماضية والحالية والمستقبلية»⁹ وأن مؤسسات الدولة الفرنسية جزء لا يتجزأ من التاريخ بل إن مردّ تطوّر المؤسسات الفرنسية هو التاريخ الذي ساهمت فيه أجيال متتالية وشعوب عدة عاشت تحت سماوات مختلفة وعلى ضفاف أنهار وبحور مترامية الأطراف (ص. 7-9). فإذا كانت من وجهة نظره «الحقائق الأساسية للأمة» بمثابة «المحرك الأول» و«الجغرافية» بمثابة «المحرك الثاني» فإن التاريخ وما ينطوي عليه من «أيدولوجيات وخيارات سياسية»، هو «المحرك الثالث»¹⁰. فالوعاء الذي تنصهر فيه الأمة التي تجمعها جغرافية واحدة، هو التاريخ، تلك المرأة العاكسة لكل التطورات والمتغيرات. فلا غرو إذا عنون ديغول الفصل الأول من مذكرات الأمل بـ: «المؤسسات». أما أول جملة افتتح بها هذا الفصل فكانت عن مكانة وأهمية التاريخ في حياة فرنسا. «جاءت فرنسا من أعماق العهود. إنها حية. [و] العصور تناديها» (مذكرات الأمل، ص. 7). إن نظرة ديغول لتاريخ فرنسا، تتجاوز حدودها الإقليمية، بل حدود إمبراطوريتها الاستعمارية لتشمل الكون بأسره. أما من حيث البعد الزمني فإن «ماضيها» وحاضر[ها] ومستقبل[ها] لا يقبلون الانحلال» (مذكرات الأمل، ص. 7) ويستطرد قائلاً «ومن ثمة فإن الدولة، المكلفة بشؤون فرنسا، لمسئولة في ذات الوقت عن ميراثها السابق، عن مصالحها

6- ترجع بعض الأفلام الفرنسية تشنج العلاقات بين البلدين إلى مطالب الاعتذار التي رفعتها الجزائر التي لسان الرئيس عبد العزيز بوتفليقة في الجمعية العامة الفرنسية سنة 2000 وفي كل المناسبات التاريخية، خاصة بمناسبة ذكرى مجازر 8 ماي 1945.

7- كان الجنرال ديغول يشغل منصب نائب كاتب الدولة في حكومة (بول رينو Paul Reynaud) عشية احتلال باريس من طرف الألمان وتوقيع اتفاقية السلام يوم 17 جوان 1940 بين (هتلر Hitler) و(بيتان Pétain)، رئيس الحكومة الجديد. غادر ديغول باريس باتجاه لندن حيث وجه كلمته المشهورة: «خسرت فرنسا معركة ولكنها لم تخسر الحرب». بعث نداء 18 جوان 1940 للجنرال ديغول، مؤسس حزب «فرنسا الحرة» و«الحكومة الفرنسية المؤقتة»، الأمل في نفوس الفرنسيين الذين شرعوا في تنظيم المقاومة وهبوا لتحرير عاصمتهم باريس.

8- غيبت فرنسا عن مؤتمرات واشنطن (جانفي 1941)، الدار البيضاء (فبراير 1943) طهران (نوفمبر 1943)، يالطا (فبراير 1945) بوتسدام (17 جويلية - 2 أوت 1945)

9-GAULLE (de) : Mémoires d'espoir, p.7.

10-PEYREFITTE Pierre : c'était de Gaulle

الحالية وعن آمالها المستقبلية» (مذكرات الأمل، ص.7). هذه بالتأكيد ورقة طريق وجهها ديجول لمن سيتوالون من بعده على رأس الدولة ومؤسساتها.

ولكن في سياق تاريخي وسياسي آخر، لا تخلو هذه المقاربة من النزعة النيوكولونالية التي تميز بها الجنرال ديجول والتي حجت عنه عزيمة الشعوب في تقرير مصيرها. فالأمة» في مفهومه، هو الشعب الفرنسي سواء تواجد داخل الحدود الإقليمية لفرنسا أو كان منتشرا عبر مستعمراتها التي تسكنها «شعوب» و«أعراق» مختلفة (مذكرات الأمل، ص.7). أما «الجغرافية» فهي تلك الأطراف المترامية للإمبراطورية الاستعمارية التي كانت مفخرة فرنسا عند الشدائد (الحرب مع بروسيا في 1870، الحربين العالميتين 1914-1918 و 1939-1945¹¹). وأما «المؤسسات»، فهي ذلك الساعد القمعي، التعسفي الذي لولاه لما بقيت فرنسا ما بقيت في مستعمراتها.

إن مؤسسة (institutionalisation) المقاربة الديغولية للشأن التاريخي وتبنيها من طرف أحزاب اليمين وحتى اليسار (في عهد ميتران على وجه الخصوص) حولها مع مر الزمن إلى ثقافة سياسية تفاعلت معها الأوساط الجامعية (ظهور التيار التحريفي للتاريخ¹² وشرائع عريضة من المجتمع الفرنسي التي غذتها نزعة منظمة الجيش السري (O.A.S) والأقدام السوداء المتأصلة في جنوب فرنسا حول مدن مرسيلية، بارينيون، طولون، نيس وغيرها من المدن التي استقطبت الأوربيين النازحين من الجزائر غداة التوقيع على اتفاقية (إيفيان) واستفتاء تقرير المصير (3 جويلية 1962). تعتبر اليوم هذه المدن خزانا لأصوات اليمين، تنهات عليها الطبقة السياسية بمختلف حساسياتها الأيديولوجية بمناسبة كل الاستحقاقات الفرنسية المصيرية.

4. مراحل سطو فرنسا على تاريخ الجزائر 1830-2000

يقول محيي الدين جندار¹³: «إن الصنيع الكولونيالي نمط الفكر التاريخي الفرنسي والأوروبي لشمال إفريقيا». هذه النمطية تحولت تدريجيا وتحت تأثير ومتطلبات الاحتلال العسكري ثم الإدارة الكولونالية وأخيرا تحت ضغط الكولون الذين آل إليهم الأمر أواخر القرن التاسع عشر ومطلع العشرين¹⁴، إلى عقيدة تاريخية غذتها «المدرسة الفرنسية العتيقة»¹⁵ بما أنجزته من دراسات أعدت من طرف ضباط جيش الاحتلال ما بين 1837 إلى غاية 1880 وأعطتها بعد ذلك أرقام «مدرسة جامعة الجزائر»¹⁶ التي تأسست سنة 1880، بعدا أيديولوجيا تنقلته مختلف الأجيال التي درست وتخرجت من جامعة الجزائر. بعد 1962، تولى هذه المهمة مركز الأبحاث والدراسات حول مجتمعات البحر المتوسط¹⁷ اختصارا بالفرنسية (كراسم) الذي وسع فضاه البحثي فأصبح يعرف بـ معهد الأبحاث

11- كانت الجغرافيا الاستعمارية حاضرة بقوة أثناء حرب التحرير حيث اعتمدت فرنسا على الشعار التالي: «من دنكارك إلى تامنراست، بلد واحد».

12-Le courant révisionniste.

13- DJENDER Mahieddine : Introduction à l'histoire de l'Algérie...p.90.

14- منح قانون تنصيب الوفود المالية في 23 أوت 1898 سلطة سياسية كبيرة للكولون.

15-La Vieille Ecole Française (137-1880).

16-L'Ecole Universitaire d'Alger 1880-1962.

17-Le Centre de Recherches et d'Etudes sur les Sociétés Méditerranéennes. (C.R.E.S.M.)

والدراسات حول العالم العربي والإسلامي»¹⁸ اختصارا بالفرنسية (ايريمام) يوجد مقره بمدينة (أكس آن بروفانس). يتبع (ايريمام) ل: المركز الوطني للبحث العلمي¹⁹ الفرنسي وينشر حولية سنوية تعرف ب: حولية شمال إفريقيا²⁰. إلى جانب ذلك خصصت بعض الجامعات في باريس، روان، ومرسيليا كرسي الأستاذية لتدريس تاريخ المغرب والجزائر.

1.4. من تحريف وتقزيم تاريخ الجزائر (1830-1962)²¹

اكتسى السطو على تاريخ بلدان المغرب عموما والجزائر على وجه الخصوص، أوجها وأشكالا مختلفة اشتركت فيه كافة القوى العسكرية (منتصف القرن التاسع عشر) والحساسيات السياسية والفكرية (القرنين العشرين والحادي والعشرين) سواء كانت داخل أو خارج السلطة، ولقد ظهرت بوادر هذا السطو غداة احتلال الجزائر بإقدام قادة الجيش الغازي ومن حذا حذوهم من الباحثين والدارسين الفرنسيين والأوربيين، على تركيز كامل عنايتهم على تاريخ شمال أفريقيا والجزائر وجغرافيتهما الطبيعية والبشرية والثقافية والدينية واعتبار تعدد وتشعب مظاهرها، عوامل تفرقة وضعف وتفتيت، إن أولى مظاهر هذا السطو هو تجريد تاريخ المنطقة من وحدتها التاريخية والتركيز على عدم قدرتها على بناء مؤسسات تضمن لها التواصل والاستمرارية التاريخية والحضارية. وسبب ذلك حسب رأيهم دخول «العرب» وانتشار الإسلام في «بلاد البربر».

يرى محيي الدين جندر، أن عدم تكافؤ القوى بين دولة إمبريالية في أوج عظمتها وشعب لا زالت تحكمه قوانين النظام الإقطاعي، هي السبب الرئيس في هزيمة هذا الشعب الذي فرض عليه جيش الاحتلال ثم من بعده النظام الكولونيالي سيطرتها المطلقة عبر كامل ربوع الجزائري. تولد عن انهزام الشعب المحتل وتشيت قواته الحيوية، إحساس قوي لدى منظري الاحتلال من عسكريين وسياسيين ودارسين وجامعيين، أن هذا الشعب آيل لا محالة إلى الزوال. فكيف تحوّل هذا الإحساس إلى عقيدة غذتها دراسات وتحاليل عسكرية راهنت على قوتها وجبروتها من جهة، وقناعتها الراسخة بأن الجزائر فرنسية ولا يمكنها أن تكون إلا كذلك، من جهة أخرى. هذا ما ستعرض له من خلال عينة من الدراسات التي اعتبرت رائدة في وقتها، بل ولا زالت كذلك في بعض الدوائر، ليس فقط في فرنسا فحسب ولكن حتى في الجزائر.

جاء في كتاب أرناست مارسسي المعنون: تاريخ تموقع العرب في إفريقيا الشمالية²² أن «غزو الهلالين تسبب في انحلال سياسي وأخلاقي» وعندما «أصبح العرب القوة الوحيدة لهذه الممالك، فرضوا إرادتهم على ملوك البربر وتسببوا بغدرهم وثوراتهم في فك، بشكل نهائي، وحدة شعب الأهالي الذي مزقته حروب غير متناهية بين المرينيين وبني عبد الواد والحفصيين» (ص.314).

18-Institut de Recherches et d'Etudes sur le Monde Arabe et Musulman (I.R.E.M.A.M.)

19-Centre National de la Recherche Scientifique (C.N.R.S.).

20-Annuaire de l'Afrique du Nord.

21-لم نطمح من الأساس إلى التعرّض لكل ما صدر عن المدرسة الكولونيالية والفرنسية منذ 1830 إلى 1962. الغاية من هذه الورقة هو الوقوف عند عينة من الدراسات التي أسست للتيار التحريفي الفرنسي الذي أخذ طابعا ثقافيا واجتماعيا وسياسيا غداة 1962.

22-MERCIER Ernest : Histoire de l'Etablissement des Arabes dans l'Afrique Septentrionale.

1.1.4. أرناست مارسيسي (1878-1955)²³

خرج هذا المترجم العسكري بخلاصة مفادها أنه: «يمكن التنبؤ بأن الاحتلال الفرنسي للجزائر سيتمخض عنه بعث لإفريقيا الشمالية، ليس عن طريق إحياء العرقيات المحكوم عليها بالانطفاء، ولكن عن طريق تثبيت العنصر الأوروبي في البلاد» ص.358. من الواضح أن الغاية، هي تبرير الغزو والاحتلال. لكن هل سيكون «الانطفاء» المرتقب لسكان بلدان المغرب العربي، طبيعيا بمعنى بيولوجيا أم بفعل فاعل والفاعل في هذه الحالة معروف؟

2.1.4. جورج مارصي (1876-1962)

تمحورت أطروحة أستاذ كرسي الآثار الإسلامية بـ«جامعة الجزائر»²⁴ البروفيسور جورج مارصي، التي ناقشها في جامعة الصوروبون (باريس، فرنسا) والمطبوعة سنة 1913 تحت عنوان: العرب في [المنطقة] البربرية من القرن 11 إلى القرن 1425، حول نفس الإشكالية أرناست مارسيسي. استهل مارصي دراسته بمقدمة جاء في فقرتها الأولى وسطرها الافتتاحي أن: «تاريخ [منطقة] البربر في العصور الوسطى لا تثير مطلقا [في نفسية] القارئ الفرنسي الاهتمام الذي يجده عند [مطالعة] تاريخ البلدان الأوروبية». هو فما السبب يا ترى؟ «هناك أشياء كثيرة تنفر القارئ الفرنسي رغم وقوعه تحت سحر هذه المناطق البعيدة» يقول مارصي الذي أعد قائمة طويلة من هذه المنفرات منها: «أسماء الأعلام الفظة النطق، المعقدة الاستسناخ التي تجرح عينه وتثبط ذاكرته، فتتولد لديه حيرة دائمة» (ص.1) ويرى جورج مارصي في شق آخر، أن الحرب سجال بين «البربر» و«العرب» وفيما بين كل واحد منهما بسبب البحث الدائم عن توفير الشروط الضرورية للعيش. ولأنه في نظره «لم يتحمسوا للقضايا الدينية الكبرى» ولا «يشغلهم حب الوطن الذي يبقى غريبا عنهم»، يصف تاريخهم بـ«غير المتجانس والحقير» ص.680. فمتى كانت «القضايا الدينية الكبرى» و«حب الوطن» حكرا على جنس أو شعب دون آخر؟ ولأن نظرتة لتاريخ المغرب العربي وإفريقيا، نظرة أوروبية محورية لا تستوعب ما هو خارج ذلك²⁶، فإنه لم يقف أو لم يرد أن يقف، عند تلك الشبكة العنكبوتية التي نسجها التاريخ الغابر الممتد من العصر الحجري مرورا بالفينقيين والممالك البربرية والرومان والوندال والبيزنطيين إلى العرب الفاتحين والأتراك قبل وقوع الشرخ الذي أحدثه الاحتلال الفرنسي في جسم بلاد المغرب وشعوبها التي لم تميزها حسب زعمه حركية تاريخية: «لا تبدو بلاد البربر قادرة على الارتقاء بوسائلها الخاصة؛ فكان لزاما عليها أن تكون مقطوعة من طرف الغير» (ص.1).

3.1.4. إيميل فيليكس غوتيي (1864-1940)

ثالث مرجع اعتمدنا عليه هو لـ: (إيميل فيليكس غوتيي)، المكنى بافتخار في التاريخية الفرنسية بمؤرخ «العصور المظلمة للمغرب» لنشره سنة 1927 كتابا تحت عنوان: إسلامية

23- لم نعتد هنا على تاريخ ميلاد ووفاة المؤلفين ولكن على تاريخ طبع المراجع المعتمدة.

24- من المفارقات أن جامعة ابن يوسف بن خلة بالجزائر العاصمة، المعروفة أيضا بالجامعة المركزية، احتفلت سنة 2009 بالذكرى المئوية لتأسيس «جامعة الجزائر» (1909-2009). فهل زكت الوزارة الوصية، بصمتها المطبق، التواصل بين الجامعة الكولونiale وبين الجامعة الوطنية؟

25-MARCAIS Georges : Les Arabes en Berbérie du XIe. Au XIV siècle.

26- أنظر جاندار، صص. 85-117 ناصر الدين سعيدوني : أساسيات منهجية للتاريخ. دار البقضة للنشر، الجزائر، 2000، ص.207. راجع بالخصوص «معطيات التعامل مع تاريخ الجزائر المعاصر» صص. 120-122.

شمال إفريقيا. العصور المظلمة للمغرب، ولهذا العنوان قصة نوجزها على النحو التالي²⁷. كتب في الطبعة الأولى الشطر الأول من العنوان: (إسلامية شمال إفريقيا)، في أعلى غلاف الكتاب بأحرف صغيرة الحجم أما الشطر الثاني منه (العصور المظلمة للمغرب)، توسط الغلاف وجاء بأحرف كبيرة الحجم غليظة الشكل، داكنة السواد، مما يدل على أنه هو العنوان الرئيس للكتاب. اختفي الشطر الأول من عنوان الطبعة الأولى: (إسلامية شمال إفريقيا) في طبعة 1937 ليستبدل بعنوان آخر: (ماضي شمال إفريقيا) الذي كتب على سطرين بأحرف كبيرة وغليظة في حين كتب الشطر الثاني (العصور المظلمة) بأحرف جد صغيرة. حافظ الناشر (بايو)، في طبعتي 1952 و1964 على العنوان الأول (ماضي شمال إفريقيا) وجعل منه العنوان الرئيس للكتاب وأدرج الشطر الثاني منه (العصور المظلمة) في العنوان الداخلي للكتاب. لماذا كل هذه التعديلات والتغييرات المتتالية؟ لأن الناشر وقبله المؤلف قاما بمراجعة المحتوى وتكييفه مع مستجدات البحث التاريخي والأثروبولوجي؟ أم لأنهما تبنيا بما أفرزته سنوات ما بعد الحرب العالمية (1939-1945) من ديناميكية للحركات السياسية المناهضة للاستعمار عموما والاستعمار الفرنسي على وجه الخصوص؟ لا هذا ولا ذاك. الغاية كانت تكتيكية لا غير ولم يكتفِ محتوى الكتاب مع المستجدات السياسية لبلدان المغرب العربي لأن الأيديولوجية الكولونيالية التي أسست للكتاب بقيت على حالها ولم تطوّر موقفها إزاء قضايا التحرر والمستعمرات²⁸.

انطلق غوتي من العبارة العربية: «جزيرة المغرب» لبناء اشكالية بحثه الضخم التي تمحورت حول التوقع الجغرافي لهذه الجزيرة. يرى المؤلف أن «المغاربة» يديرون ظهرهم للبحر مصدر التقدم والحضارة التي لا تنفذ إليهم من «الصحراء التي تحاصر [جزيرة المغرب...]» ص.7. هكذا وبجرة قلم أقصى غوتي بلدان المغرب العربي من صرح الحضارة. تمهيدا لماذا؟ لنواصل مطالعة كتابه: «إن بلدانا قارية في اتصال مفتوح مع ما يحيط بها، تساهم دون تأخر في حياة الكون. الأمر يختلف تماما بالنسبة لجزيرة، لمنطقة شديدة العزلة مثل المغرب. إن أشياء قديمة لا فائدة فيها في بلدان أخرى، يحتفظ بها [هنا] زمنا طويلا. إن الحاضر لا ينافس الماضي بوتيرة سريعة. في المغرب دام العصر الحجري أكثر من أوروبا. شيّد العديد من الدلمن»²⁹ (نصب ما قبل التاريخ) من حجارة تحمل نقوشا رومانية» ص.7. هل لجأ المؤلف للجغرافية لأنه جغرافي التكوين، أم لأنه حاول تفسير ما لم يجد له تفسيراً باستنطاقه المحيط الطبيعي عله يزوده بمعلومات لم تدوّن تاريخيا؟

في الواقع، أسس غوتي فرضيته على ما اعتبره تخلفا مستداما للسكان: «من بين الأعراق البيضاء المتوسطية، يعتبر المغربي بكل التأكيد المتباطئ الذي بقي بعيدا في الخلف» ص.7. ثم يواصل متسائلا: من سيوفر شروط استغلال «الطاقات الهائلة التي يتوفر عليها المغرب من خمر وزيت وصوف ومناجم ومن يحوّل هذه الثروات الكامنة من حالة الجمود إلى حالة ديناميكية... من هو منشط هذا كله في بلد تعرف جميع مقاطعاته السقم؟ المغرب

27-راجع الملحق رقم 1.

28-ومع ذلك ورد على لسان (غريبال أوديزيو) الذي قام بكتابة تصدير الكتاب ما يلي: «... لكنه (غوتي) اختفى مبكرا فلم يشهد تسارع وحظوظ القومية الجزائرية الوشبكة التحقيق». ص.8. غير أن «القومية» التي يتحدث عنها أوديزيو، هي قومية كولونيالية تؤسس لـ «جزائر جديلة».

محكوم عليه بعدم الاكتفاء بسبب المناخ» ص 16. فهل من حلّ ينقذ الجزائر من الموت المبرمج؟ «التعاون» يجيب بسخاء المؤلف ص 16. ومع من؟ مع فرنسا الاستعمارية طبعاً، صاحبة الكفاءات العلمية والقدرات التقنية والمالية.

2.4. ... إلى تبييض «الكارطيرون» وتخليد ذاكرة «لو.آ.س.» (1962-2009)...

1.2.4. في عهد رئاسة الجنرال ديغول (1958 - 1968)

حكمت المحكمة العسكرية العليا التي نصّبت سنة 1961، على الجنرال السابق (أدمون جوهو)، بحكم الإعدام لمشاركته في انقلاب «الكارطيرون» ضدّ الجنرال ديغول في 25-22 أبريل 1961 في حين أصدرت حكماً بالمؤبد على مدبر الانقلاب والمتهم الرئيسي³⁰ الجنرال السابق (راهل صالون). لم يستسغ الجنرال ديغول هذا الحكم ورأى فيه محاولة ليّ اليد لحمله على النطق بالعفو في حق آدمون جوهو. يذكر الناطق الرسمي للحكومة (ألان بارفيط)، أن الجنرال ديغول غضب غضباً شديداً لإفلات صالون من عقوبة الإعدام (بارفيط) ص. (169 - 172)³¹.

ديغول الذي كان مصراً على تسليط أقصى العقوبات على «الكارطيرون» وقادة ونشطاء لو.آ.س. وكل من تعدى على أمن الدولة، يغيّر موقفه لمقتضيات سياسية داخلية فيصدر مجموعة من القوانين تمحوا جميع ذنوبهم. يمسّ العفو الرئاسي الصادر في 17 ديسمبر 1964، 173 عضواً من تنظيم لو.آ.س. أما قانون 17 جوان 1966، فإنه شمل الضباط الذين دبروا الانقلاب الفاشل وكل مرتكبي مخالفات ضد أمن الدولة أو تلك المتعلقة بـ «أحداث الجزائر». وفي موضوع ذو صلة مع أزمة مايو 1968، وبمقتضى قانون 7 جوان، أعفى الجنرال عن كافة أسرى لو.آ.س. أما قانون 24 جويلية من نفس السنة، فمسح جميع العقوبات المرتبطة بـ «أحداث الجزائر» بما فيها المرتكبة من طرف ضباط الجيش الفرنسي في الجزائر.

2.2.4. في عهد رئاسة الاشتراكي فرانسوا ميتران (1981-1995)

إن القوانين الصادرة في عهد الجنرال ديغول، الرجل الرمز بالنسبة للفرنسيين بما فيهم خصومه الأيديولوجيين، فتحت شهية المتنافسين على كرسي الإليزي، ومن يومها تحوّل التاريخ، لاسيما تاريخ ما كان يسمى آنذاك بـ «أحداث الجزائر»، إلى جزء محوري في السياسة الفرنسية الداخلية والخارجية. هكذا اصطبغت رئاسيات 1981 التي جمعت بين الرئيس المنتهية عهده (فاليري جيسكار ديستان) وبين المترشح (فرانسوا ميتران)، بصبغة تاريخية حادة كان الفائز فيها مرشح الحزب الاشتراكي الذي عرف كيف يوظف التاريخ عاطفياً وثقافياً وسياسياً، فكانت النتيجة أن تجاوزت معه القوى الاجتماعية والسياسية المنتمية لليمين المتطرف بما فيها لو.آ.س. التي استعادت سطوتها السياسية. فإذا ما دققنا في هذه العلاقة التي تبدو في الوهلة الأولى غير طبيعية بين الحزب الاشتراكي الفرنسي واليمين المتطرف، ينكشف لنا الوجه الحقيقي ليسار الفرنسي وما تحالف ميتران مع اليمين المتطرف إلا جزء من المخطط الرامي إلى الإطاحة بالجنرال ديغول الذي اعتبر إلى غاية

30- Courriere, Yves. La guerre d'Algérie-IV. Les Feux du désespoirp.273.

31- Peryrefitte, Alain. C'Etait de Gaulle .La France redevient la France, 1994, 598.

1964 من ألد خصوم لو.آ.آس لأنهم في نظره أشد أعداء فرنسا.

استغل الحزب الاشتراكي الفرنسي هذه العداوة ليتحالف سنة 1965 مع اليمين المتطرف بما فيهم نشطاء لو.آ.آس. الذين دعوا إلى مناصرة ميتران، مرشح اليسار ضد ديغول. وفي السنة الموالية، أي في 1966، قدم (غيمولي) وشيخ بلدية مرسيلية (غاسطون ديفار) والأمين العام للحزب الاشتراكي فرانسوا ميتران، مشروع قانون يقضي بإعادة عناصر لو.آ.آس إلى وظائفهم السابقة مع الاحتفاظ برتبهم العسكرية.

هكذا كانت الاستحقاقات التي خاضها الحزب الاشتراكي ضد غريمه اليمين الديغولي، من أفذر الحملات من الوجهة الأخلاقية لأن «حرب الجزائر» أي ثورة أول نوفمبر 1954، دخلت بورصة السياسة الفرنسية وتأكّد بعد ذلك أن فوز المرشح فرنسوا ميتران في رئاسيات 1981، كان نتيجة تحالفات سرية بينه وبين قائد لو.آ.آس، راوول سالون، ورئيس التنظيم العنصري روكور، (جاك روزو) الذي طلب من أتباعه «معاينة فاليري جيسكار ديستان» الذي أخل بوعوده تجاه الأقدام السوداء عندما كان في سدة الحكم. وفور تنصيب فرانسوا ميتران رئيسا للجمهورية الفرنسية، صودق بتاريخ 3 ديسمبر 1982 على آخر قانون عفو في صالح الجنرالات الانقلابيين الذين أعيد دمجهم في صفوف الجيش الفرنسي مع المحافظة على رتبهم السابقة واحتساب السنوات التي قضوها في السجن سنوات عمل كما أنهم استفادوا من التعويض ومعاشات التقاعد كاملة، وقد برّر ميتران هاته المقيضة السياسية بـ «أن الصفح من حق فرنسا»³². عقب المؤرخ الفرنسي (جيل مونسرون) على ذلك بقوله: «من غير المقبول أخلاقيا اعتبار ملف جرائم الجيش الفرنسي مطوية» ص. 37³³. هكذا أصاب فرانسوا ميتران عصافورين بحجر واحد. أولا تمكن من اعتلاء كرسي الإليزي وثانيا، من طي صفحة الشرخ الفرنسي-الفرنسي بتوظيفه تاريخ «أحداث الجزائر» ولكن كما جاء في صحيفة (لومانييتي) على حساب واجب «الحقيقة في الماضي والحاضر والمستقبل»³⁴ بل وذاكرة الفرنسيين الأحرار الذين أعدوا سنة 2000 بيانا عرف بـ «بيان الإثنى عشر» هزّ أركان حكومة (ليونال جوسبان) الاشتراكية.

3.4. ... إلى تمجيد الاستعمار 1999-2010.

القانون الفرنسي الممجّد للاستعمار: 20 فبراير 2005

أبرز ما ميز هذه الفترة بعد إخفاق «اتفاقية الصداقة بين الجزائر وفرنسا»³⁵ التي راهن عليها الرئيسان عبد العزيز بوتفليقة وجاك شيراك، هو صدور القانون الفرنسي رقم 58/2005 المؤرخ في 23 فبراير 2005 المتضمن «اعتراف الأمة [الفرنسية] والمساهمة الوطنية لفائدة المرحلين الفرنسيين». لم نتطرق في هذه الورقة بالتفصيل لهذا القانون الموصوف في الجزائر بـ «قانون العار» لأنه ليس موضوع هذه الورقة، لكن سنحاول الوقوف عند خلفياته السياسية لما لها من إسقاطات على تاريخ الثورة التحريرية وذاكرة

32- ليس غريبا على (ميتران) مثل هذه التحالفات وهو الذي اتهم بتواطئه مع النازي الفرنسي (طوفي).

33- MANCERON Gilles, REMAOUN Hassan (1993). D'une rive à l'autre. La Guerre d'Algérie. De la mémoire à l'histoire. pp.293, p.37.

34- L'Humanité, numéro spécial guerre d'Algérie, 2001, 114p.

35- BEAUGE Florence (2008). Algérie, de la guerre à la mémoire. Paris: quel avenir ?, 166p. Cf. son article : « En visite à Alger, Nicolas Sarkozy enterre le traité d'amitié entre la France et l'Algérie » pp.143-144. هذه نشرت هذه المقالة Le Monde بتاريخ 12-7-2007 (لوموند) الفرنسية اليومية في المقالة

شعب بأكمله ارتبط اسمه بمكافحة الاحتلال³⁶.

حلّت عبارة «حرب الجزائر»³⁷ محلّ «أحداث الجزائر» سنة 1999³⁸ فاستغلها اليمين المتطرف والحركي والأقدام السوداء لتعزيز مكانتهم السياسية فزادوا في تصعيد لهجتهم واحتجاجاتهم وضغطوا بشكل غير مسبوق على السلطات الفرنسية لحملها على تلبية مطالبهم³⁹. الملفت للانتباه، أن القوى السياسية المتنافسة على السلطة وفي طليعتها حزب الأغلبية الإتحاد من أجل حركة شعبية (U.M.P) الذي كان يرأسه وزير الداخلية سابقا، وهو رئيس الجمهورية حاليا (نيكولا ساركوزيا)، وجدت في تاريخ فرنسا الاستعماري، أرضية لتخصيب أفكارها واستثمارها سياسيا في الداخل والخارج. داخليا، أصبح ساركوزي لسان حال فرنسا جديدة، قوية، يسودها الأمن والاستقرار. فاعتبره الكثير من الفرنسيين، المدافع الأمثل والأقدر على قمع انتفاضات «لمهمشين» في ضواحي باريس وليون ومارسيلا. خارجيا، رأت فيه نسبة عريضة من الفرنسيين، أنه المتصلي الشجاع والشرس لمطالب الاعتذار والتعويض التي رفعتها الدولة الجزائرية⁴⁰، فهو بالتالي حامي ذاكرة الفرنسيين بل ذاكرة الدولة الفرنسية ومؤسساتها التي ارتبط ويرتبط ماضيها وحاضرها ومستقبلها بتاريخ المستعمرات الفرنسية في العالم.

لقد شكلت دوما ذاكرة «حرب الجزائر» الوتر الأكثر حساسية للقوى السياسية في فرنسا وكانت الاستحقاقات السياسية، الرئاسية منها على وجه الخصوص، فرصة لفتح ملف تاريخ فرنسا في الجزائر للمرة الألف والتذكير بتضحيات وآلام فرنسيي ما بعد 19 مارس 1962؛ كل ذلك لاستعطاف واستمالة هذه الشريحة من المجتمع الفرنسي. فماذا ترك ديغول وميتران، للرئيسين شيراك وساركوزي؟ أمضى الرئيس شيراك وقته في تخليد عدد من الأيام التاريخية ذات صلة بـ «حرب الجزائر» وتكريم الحركي تحت قوس النصر، كما رفع منحة قدامى المحاربين العالميتين وعسكر فرنسا في الجزائر ما بين 1954 و1962. في عهده وبطلب منه أستلم الوزير الأول (جان بييار رفران) سنة 2003، المسودات الأولى لقانون 2005 الذي عرضه فيما بعد الوزير المنتدب لقدامى المحاربين، حملاوي ميكاشري، على الجمعية الوطنية الفرنسية التي صادقت عليه في جلسة ليلية وفي ظروف قيل عنها غامضة حضرها عدد قليل من نواب الأغلبية ونواب المعارضة بما فيهم أحزاب اليسار من الحزب الاشتراكي والشيوعي.

يعتبر قانون 23 فبراير 2005، بالنظر لما سبق، ذروة ما وصلت إليه فرنسا في مجال السطو على تاريخ وذاكرة الشعوب التي استعمرتها.

• فعندما «تعرب الأمة [الفرنسية] عن عرفانها للنساء والرجال الذين ساهموا في انجاز

36- يمكن الرجوع في هذا الصدد لعدد من المراجع منها:

Rosenman Anny et Valensi Lucette. La Guerre d'Algérie dans la mémoire et l'imaginaire. Ed. Bouchène, Saint-Denis, 2004, 304p.

37-Stora Benjamin. Guerre d'Algérie : Les instruments de la mémoire.

38- أنظر الفرق بين «حرب الجزائر» و«الحرب في الجزائر» - نفس المرجع السابق، ص. 215.

فلم نحسن في الجزائر توظيف هذا التعديل الاصطلاحي؛ الذي هو إقرار صريح بارتكاب فرنسا عدوانا غير شرعي على الجزائر وخوضها حربا لا إنسانية ضد المدنيين؛ للمطالبة بحقوق الجزائر التاريخية من اعتذار وتعويض وما إلى ذلك على غرار ما فعلته فرنسا مع ألمانيا ما بعد النازية.

39- Savarese Eric : Algérie, la guerre des mémoires .Ed. Non Lieu, Paris , 2007, 175p, p.56.

40- أنظر رد فعل الحركي بعد خطاب الرئيس بوتفليقة في الجمعية العامة الفرنسية سنة 2000. المرجع السابق ص.59.

العمل الذي قامت به فرنسا في المقاطعات الفرنسية سابقا بالجزائر وتونس والهند الصينية وكذلك في الأقاليم الخاضعة للسيادة الفرنسية سابقا...» المادة الأولى؛

• وعندما «تعترف الأمة الفرنسية بالمعاناة والتضحيات المبدولة من طرف المرحلين، والأعضاء القدامى في التشكيلات المساعدة والمندمجة، والمفقودين، والضحايا المدنيين والعسكريين في الأحداث المتعلقة بصيرورة استقلال هذه المقاطعات والأقاليم السابقة وتنحني أمامهم وأمام عائلاتهم بكل خشوع» المادة الأولى،

• وعندما «تشرك فرنسا المرحلين من شمال إفريقيا والمفقودين والمدنيين ضحايا المجازر أو التجاوزات المرتكبة أثناء حرب الجزائر وبعد 19 مارس 1962 خرقا لاتفاقيات إيفيان، وكذا الضحايا المدنيين لمحاربي تونس والمغرب؛ في التكريم الذي خصت به يوم 5 ديسمبر 2005 المحاربين الذين سقطوا من أجل فرنسا في شمال إفريقيا» المادة الثانية.

• وعندما تسعى القوة الاستعمارية السابقة لتأسيس «مؤسسة لذاكرة حرب الجزائر ولمحاربي تونس والمغرب بمساعدة الدولة» المادة الثالثة.

فهذا دليل قاطع على أن «الجمهورية» التي هي مفخرة كل الفرنسيين، لم تتحرر لحد الساعة من تاريخها الاستعماري ومن مشروعها الإمبراطوري الذي أنعشته العولمة وحرك دواليبه التوغل التجاري للصين ونشطه النفوذ الاستراتيجي المتزايد للولايات المتحدة الأمريكية في القارة الإفريقية التي اعتبرتها فرنسا فيما مضى حيازة خاصة بها.

ما المادة الرابعة التي أسالت الكثير من الحبر فجاءت على النحو التالي :
«تخصص برامج البحث الجامعي لتاريخ تواجد فرنسا فيما وراء البحار وبالأخص في شمال إفريقيا، المكانة المستحقة. وعلى البرامج المدرسية، بالأخص، أن تعترف بالدور الإيجابي للتواجد الفرنسي فيما وراء البحار، خاصة في شمال إفريقيا، وتخصص لتاريخ وتضحيات محاربي الجيش الفرنسي المنحدرين من هذه الأقاليم المكانة المرموقة المستحقة. يشجع التعاون الذي يسمح بتوفير المصادر الشفوية والمكتوبة المتوفرة بفرنسا وبالخارج».

كانت هذه المادة محلّ معارضة شديدة من طرف فئة عريضة من المثقفين الفرنسيين والجامعيين على وجه الخصوص. مفجر هذه القنبلة، البروفسور (كلود ليوزو)، أستاذ التاريخ بجامعة باريس 7 (جوسيو)، أما زميله البروفسور (بونوا فلاز)، أستاذ بالمعهد الجامعي لتكوين المعلمين، بفراساي والمختص في مواضيع الذاكرة، فيرى أن هذا القانون يعيد فرنسا «ثلاثين أو أربعين سنة إلى الوراء» كما أنه يرى أن مطلب «إعادة تقييم الماضي الاستعماري لفرنسا» هو «ثمرة لوبي» أعضاء من تنظيم الإتحاد من أجل حركة شعبية⁴¹ أو.أم.بي. من بين الأسماء التي لعبت دورا أساسيا في اقتراح ثم تمرير هذا القانون، ذاع صيتها مع الصعود السياسي لنيكولا ساركوزي، وزيرة الدفاع السابقة (2002-2007) ووزيرة الدولة ووزيرة العدل الحالية -2009- (ميشال أليو ماري) والأمين العام لحزب (O.M.P.) في 2002 وزير الصحة الأسبق -2004- (فيليب دوسط بلازي) والنائب ومقرر اللجنة التي تقدمت بقانون 2005 (كريستيان كاط) وكلهم من الحزب الحاكم حاليا.

أما إذا استنتقنا قانون 2005 على ضوء الحراك السياسي الفرنسي - الفرنسي، فإننا نلاحظ

41-Section de Toulon de la Ligue des Droits de l'Homme: Loi, histoire, mémoire. in. <http://www.ldhtoulon.net> 07.11.2005

أنه اكتسب صبغة المزايدات السياسية الاستباقية تحضيراً لرئاسيات ماي 2007، التي فاز فيها رئيس حزب أو.أم.بي نيكولا ساركوزي، الخارج من تحت جبة الرئيس المنتهية عهده جاك شيراك.

اقتداء بالجنرال ديغول، وظنا منه أن التاريخ هو الماضي والسياسة هي المستقبل، سعى هذا الأخير إلى طي صفحة تاريخ فرنسا في الجزائر وفتح صفحة جديدة بتوقيع البلدين على «اتفاقية الصداقة». على العكس من ذلك أقحم الرئيس الفرنسي الحالي نيكولا ساركوزي، ماضي الإمبراطورية الاستعمارية، في قلب السياسة الفرنسية وما وصف في الجزائر بأنه «عمي البصيرة والذهن»⁴²، هو منهج وسياسة يسريان في الميدان.

مرة أخرى كانت جزائر الثورة، حاضرة بكل ثقلها في معترك الرئاسيات الفرنسية الأخيرة. الغلبة فيها كانت للذي لعب أكثر من منافسيه وبنالغ الذكاء والتحدي على أوتار جيل «حرب الجزائر» والماضي الاستعماري لفرنسا في الجزائر، من جهة، وواجب «الدولة الفرنسية الأبدية»⁴³ ومؤسساتها في إعادة الاعتبار «للذين تركوا كل شيء خلفهم»، من جهة أخرى. من هذه الزاوية، كانت رئاسيات 2007 شبيهة إلى حد كبير بسيناريوهات 1958 و1965 و1981، ميزتها الوحيدة أن الفائز فيها قام بانقلاب على التاريخ عندما حوّل من مادة معرفية وملجئ للذاكرة الأسرية والجماعية للأقدام السوداء إلى جبهة أيديولوجية تتغذى من لهيب حنين الأقدام السوداء الذي لم ينطفئ.

الخاتمة:

لم يكن قانون 23 فبراير 2005 مجرد طفرة تاريخية. لقد مهدت مرحلة تحريف تاريخ المغرب العربي على يد الدارسين والباحثين والجامعيين الفرنسيين في القرن التاسع عشر ومطلع العشرين، لمرحلة تبيض الصفحات السوداء لجيش الاحتلال الفرنسي في الجزائر (1830-1962) وتاريخ مؤسسة التعذيب والاعتقالات طيلة حرب التحرير (1954-1962). فكانت المرحلة الثالثة، المعروفة في الأوساط الفرنسية نفسها، بـ «تمجيد الاستعمار الفرنسي» امتداداً طبيعياً للمرحلتين السابقتين.

تشعب المسؤولون السياسيون الذين ارتبطت أسمائهم بهذه المرحلة، بالإرث الأيديولوجي لأحزابهم الأصلية وتجارب من سبقهم في مناصب الدولة قبل أن يقدم بعضهم على تأسيس أحزاب جديدة إقتداء بأسلافهم تمهيداً للظفر بكرسي الإيليزي.

المراجع باللغات الأجنبية

1. Alleg Henri (sous la direction) (1981). La Guerre d'Algérie. Ed.Temps Actuel, Paris, t.2, 607p. Idem.,t.3, 613p.
2. Droz Bernard et Lever Evelyne (1991). Histoire de la guerre d'Algérie (1954-1962). Seuil, Paris, 106 p.
3. Beauge Florence (2008). Algérie, de la guerre à la mémoire. Paris :quel avenir ? Ed. Chihab, Alger, 166 p.. Cf. son article : « En visite à Alger,Nicolas

42- عبد العزيز بوتفليقة (كلمة الرئيس) : مراسيم الاحتفالات المخدلة للذكرى لـ 05 لتأسيس الاتحاد العام للطلبة المسلمين الجزائريين. تلمسان، الأربعاء 29 جوان 2005.

43- العبارة للجنرال ديغول. تم توظيفها من طرف المرشح للرئاسة 2007، نيكولا سارموزي.

- Sarkozy enterre le traité d'amitié entre la France et l'Algérie » pp.143–144.
4. Courrière Yves (1971). La guerre d'Algérie. Les Feux du désespoir (la fin d'un empire), t.4, Ed. Fayard, 675p.
 5. Djender Mahieddine (1991). Introduction à l'histoire de l'Algérie, E.N.A.L., 2e. Ed., 210 p.
 6. Esquer –Gabriel (1923). Les Commencements d'un Empire. La prise d'Alger (1830). Editions l'Afrique Latine, Alger et Edouard, Paris, 477p.
 7. Gaulle (de) Charles (1970). Mémoires d'espoir. Le renouveau 1958–1962, Ed. Plon, 378 p.
 8. Gautier Emile Félix (1952). Le Passé de l'Afrique du Nord. Les siècles obscurs. Payot, Paris.
 9. Journal Officiel de la République Française .Lois n°2005–158 du 23 f – vrier 2005 portant reconnaissance de la Nation et contribution nationale en faveur des Français rapatriés.
 10. L'Humanité, numéro spécial guerre d'Algérie, janvier 2001.
 11. Le Cour Grandmaison Olivier (2009). La République impériale. Politique et racisme d'Etat. Casbah. Alger, 401p.
 12. Marcais Georges (1913). Les Arabes en Berbérie du XIe. Au XIV siècle. Ed. D.Braham (Constantine), Leroux (Paris), 771p.
 13. Mercier Ernest (1875). Histoire de l'Etablissement des Arabes dans l'Afr – que Septentrionale, Ed. Marle, Constantine, Challamel, Paris.
 14. Peyrefitte Alain (1994). C'Etait de Gaulle .La France redevient la France, Fayard, Paris, 598 p.
 15. Rosenman Anny et Valensi Lucette (sous la direction de) (2004). La Guerre d'Algérie dans la mémoire et l'imaginaire. Ed. Bouchène, Saint– Denis, France, 304p.
 16. Savarese Eric (2007). Algérie, la guerre des mémoires .Ed. Non Lieu, Paris, 175p.
 17. Mehenni Akbal (2004). Le Contentieux archivistique algéro–français. Thèse de Doctorat en Sciences documentaires soutenue au Département de Bibliothéconomie et des Sciences Documentaires, Université d'Alger, 365 p., non éditée.
 18. Strora Benjamin. Guerre d'Algérie : Les instruments de la mémoire, in. Rosenman A, et Valensi L. op.cit.p.215

مفتاح الأسماء الفرنسية الواردة في المقالة

Aix La Chapelle	آكس لاشبال
Alliot-Marie Michelle	أليو ماري ميشال
Elysée (l')	الإيلزي
Payot	بايو
Jospin Lionel	جوسبان ليونال
Jouhaud Edmond	جوهو أدمون
Giscard d'Estain Valéry	جيسكار ديستان فاليري
Douste-Blazy	دوسط بلازي
Bourmont (de) maréchal	بورمون المارشال
De Gaulle (général)	ديغول الجنرال
Defferre Gaston	ديفار غاسطون
Raffarin Pierre	رفران بيار
Roseau Jacques	روزو جاك
Recours	روكور
Sarkozy Nicolas	ساركوزي نيكولاى
Salan Raoul	صالون راهول
O.A.S.	لو.آ.آس.
Louvres	اللوفر
Liauzu Claude	ليوزو كلود
Gautier Emile Félix	غوتيييميل فيليكس
Guy Mollet	غيمولي

